

مستقبل الثقافة من منظور مالك بن نبي

The future of culture from the perspective of Malik ben nabi.

محمودي سيف الدين*

جامعة المسيلة / الجزائر (mahmoudiseyf28@gmail.com)

تاريخ الاستلام : 2021/08/10 ؛ تاريخ القبول : 2021/12/22 ؛ تاريخ النشر : 2022 /05/ 20

Abstract

الملخص

This research paper aims to shed light on a contemporary and thorny problem, which is the problem of culture. Which thinkers and philosophers have been constantly expressing their views on. The Algerian philosopher Malik bin Nabi was among them, if not the most prominent of them. Bennabi was able to give another dimension to culture, preserving its Islamic religious dimension, thus establishing a contemporary theory in culture, which derives its components from the reality of Arab peoples, far from the blind imitation of the West, Bennabi put to culture a set of necessary elements on which culture is built, which are ethics, beauty, practical logic, and industry, all of these elements, according to him, highlight the culture of every society that preserves it.

Keywords: Malek Bennabi, culture, morals, beauty, practical logic

تهدف هذه الورقة البحثية الى تسليط الضوء على مشكلة معاصرة وشائكة، الا وهي مشكلة الثقافة، والتي ما انفك المفكرون والفلاسفة يدلون بأرائهم حولها، فكان الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي من بينهم، ان لم يكن أبرزهم، فلقد استطاع بن نبي إعطاء مفهوم آخر للثقافة، محافظا على بعدها الديني الإسلامي، مؤسسا بذلك نظرية معاصرة في الثقافة، تستمد مقوماتها من واقع الشعوب العربية، بعيدا عن التقليد الاعمى للغرب، هذا وقد وضع بن نبي للثقافة جملة من العناصر الضرورية التي تبني عليها الثقافة وتمثل في الأخلاق و الجمال والمنطق العملي والصناعة، كل هذه العناصر حسبه تبرز ثقافة المجتمع يحافظ عليها.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي، الثقافة، الاخلاق، الجمال، المنطق العلمي

* الباحث المرسل:

1. مقدمة:

تعتبر الثقافة من الموضوعات المعاصرة، التي طال حولها الكلام في العالم ككل، والمجتمع الإسلامي على وجه الخصوص، هذا ما جعل الآراء تتباين حول كيفية التأسيس لثقافة شاملة وعامة، غير ان هذا غير ممكن، لان لكل مجتمع ثقافته وخصوصياته وعاداته وتقاليده، دفع هذا بالفيلسوف الجزائري مالك بن نبي في محاولة جادة منه الى التنظير لتأسيس ثقافة عربية إسلامية تتطلق من واقع الشعوب العربية، وتجسد حالة الثقافة العربية الإسلامية وما آلت اليه، نتيجة التقليد الاعمى للثقافات الغربية، وطمس للثقافة العربية الإسلامية، ورسم فكرة شائعة في ذهن الفرد العربي، نفاذا ان كل ما يأتي من الغرب على انه ثقافة وتطور وحضارة، وما دونه فهو تخلف. وفي خضم هذه الآراء يمكن ان نطرح الاشكال الاتي:

-كيف عرف بن نبي الثقافة؟

-وما هي نظريته في الثقافة؟

-وما هي العناصر التي تتكون منها الثقافة؟

1-الثقافة ومراحل تطور مفهومها:

1-1 مفهوم الثقافة:

إذا ما بحثنا في القواميس والموسوعات، نجد ان الثقافة كمصطلح حديث في تسميته يأخذ تعريفات مختلفة، فابن منظور في معجمه في المجلد العاشر يقول: "يقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم"، ويقول ابن دريد: "ثقف الشيء حذفته"، وفي حديث الهجرة: "هو شاب لقن ثقف" (رواه البخاري)، أي ذو فطنة ونكاء، أما العلامة فريد وجدي يقول في (دائرة المعارف القرن العشرين/المجلد الثاني): "ثقف يثقف ثقافة: فطن وحذق، وثقف العلم في أسرع مدة أي أسرع اخذه، وثقفه يثقفه ثقفاً: غلبه في الحذق، والثقيف: الحاذق الفطن" (نبي، ، مشكلة الثقافة ، 2000، ص 19) ، ويعرف مالك بن نبي الثقافة أيضا الثقافة بقوله: <<مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية الذي يلغاها الفرد منذ والدته كراسمال اولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته>> (نبي، شروط النهضة، 1986، ص 83) وكما يعرفها أيضا مراد وهبة

في معجمه الفلسفي على انها "استتارة للذهن و تهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد الحكم لدى الفرد أو المجتمع" (وهبة، 2007، ص 230) وهذا يدل على ان الثقافة في مراحل تطورها لم تتوقف على تعريف جامع مانع يوضح مفهومها .

1-2 مراحل تطور مفهوم الثقافة:

لقد شهد مفهوم الثقافة تحولات كثيرة عبر العصور، مما أدى الى تنوع التعريفات ولم تستقر عند تعريف بعينه، ولهذا سأحاول باختصار تتبع مراحل تطور مفهوم الثقافة في حقب زمنية متباعدة:

-لقد شهد تعريف الثقافة في أواخر القرن الثالث عشر في اللسان الفرنسي جاء على النحو الآتي:

«العناية بالحقل والماشية وبالتالي فهي إشارة الى الأرض المحروثة» (كوش، 2007، ص 17)

- وفي بداية القرن السادس عشر أصبحت كلمة ثقافة تدل على الفعل وهو فلاحه الأرض وخدمتها، وفي منتصف القرن ذاته أصبحت تشير الى الاشتغال بانتمائها.

- وفي القرن الثامن عشر تحولت الثقافة من مخاطبة الأرض الى مخاطبة الفكر، أي من مجال الطبيعة الى الانسان في حد ذاته، في محاولة لتهديب العقل.

-اما في القرن الثامن عشر فظهرت كلمة الثقافة في اللسان الألماني وكأنها مطابقة حرفية للسان الفرنسي في القرن الثالث عشر.

-ولكن مع بدايات القرن التاسع عشر مكانة مرموقة، حيث أصبحت تدل على مدى التحضر الذي وصل اليه الانسان او بمعنى آخر تدل على الحضارة، الا ان كل من الثقافة والحضارة ليستا مترادفتين تماما، فالأولى مرتبطة بمستوى التقدم الفكري للفرد، بينما تدل الثانية على مستوى التقدم الفكري للجامعة.

-«اما في المجتمع العربي فقد استخدمت كلمات جديدة لها وأضيف معنى آخر وهو التهذيب والحدق" (كوش، 2007، ص 21).

-وفي القرن العشرين فقد اتسع مفهوم الثقافة، حيث أصبح كل بلد يزخر بمزيج من الثقافات المتنوعة، لكل شعب خصوصية ثقافية يجب احترامها، وهذا لا يمنع من التواصل مع ثقافة الشعوب

الأخرى، وكل هذا الانصهار من الثقافات فيما بينها، إنما أساسه الاحترام المتبادل لخصوصية كل ثقافة.

2- نظرية الثقافة كروية للمستقبل عند مالك بن نبي:

يزخر التراث الفكري لمالك بن نبي بكتب قييمة، ذات صدق عربي وعالمي، إذ تنصدر مشكلة الثقافة في فكره حيزا كبيرا، فأفرد لها كتابا من بينها (مشكلة الثقافة، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، شروط النهضة، وغيرها)، ولهذا نجد أن مشكلة الثقافة عند مالك بن نبي تقوم أساسا على البعد التربوي، الذي ربما واقعنا اليوم يلخص ما آلت إليه الثقافة نتيجة إهمال المنظومة التربوية، وبالتالي تيهان الفرد في غياهب الفوضى واللامبالاة، وتشتت الأفكار، يقول مالك بن نبي >> مشكلة الثقافة من الوجهة التربوية هي في جوهرها مشكلة توجيه الأفكار << (نبي، مشكلة الثقافة، 2000، ص 67) ولهذا نجد أن المشكلة التربوي التي يواجهها كل مجتمع وخاصة المجتمعات العربية منها، إنما تكمن في مشكلة توجيه الفكرة، فهناك العديد من المجتمعات لديها طاقات ومواهب لم يتم الاستفادة منها لعدم معرفة كيفية تسييرها، وتوفير المناخ الملائم لها، >> فالتوجيه هو تجنب الاسراف في الجهد و في الوقت فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية صالحة لأن تُستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول، في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية << (نبي، مشكلة الثقافة، 2000، ص 67) وبالتالي فمالك بن نبي لا يعني هنا إنتاج الأفكار ، وإنما كيفية توجيه هذه الأفكار داخل النسيج الاجتماعي، ولهذا يقول: >> وليس يكفي مطلقا أن ننتج الأفكار، بل يجب أن نوجهها طبقا لمهمتها الاجتماعية المتحدة التي نريد تحقيقها << (نبي، مشكلة الثقافة، 2000، ص 67)، والثقافة من هذا المنظور ليست مرتبطة بطبقة من الشعب دون أخرى، بل هي لكل أطراف المجتمع، >> بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي << (نبي، شروط النهضة، 1986، ص 86) ، لكن وجب بناء صرح تربوي متين تنصهر فيه جميع الثقافات دون تمييز، والتعايش وفق المكونات الثقافية الخاصة بكل فئة من فئات المجتمع.

وفي طرح مالك بن نبي لنظريته في الثقافة لم يخرج عن منهج الإصلاحية العربية، والذي يقوم في أساسه دائما، على الموائمة والتوفيق، ففي تعريفه للثقافة أراد بن نبي الجمع والتوفيق بين الطرح الماركسي والطرح الغربي عموما، بين فلسفة الانسان وبين فلسفة الجماعة، أي بين مقومات الانسان ومقومات المجتمع الذي هو عضو فيه.

3-العناصر المكونة للثقافة عند مالك بن نبي:

تتكون الدورة الحضارية التي نشأة في فكر مالك بن نبي، بارتباطها الصاعد والنازل من حيث علاقتها العضوية التي تربط الفكرة بسندها، كانت هذه اللحظة هي الفارق الذي يلعبه الانسان في بناء العالم الذي يحيط به، في إطار مبني على القيم الأخلاقية مرتبطة بالمثل العليا والجمال. وفي معالجة مالك بن نبي لمشكلة الثقافة، فقد حدد لها جملة من العناصر التي تتكون منها، ضمن شبكات العلاقات الاجتماعية، وتتمثل هذه العناصر في أربعة وهي:

3-1-البعد الأخلاقي:

يمثل الدستور الخلقي مجموعة الاخلاق والقيم السلوكية التي تحتل المركز الأول والاساسي في مشروع بن نبي الثقافي، فهو يشدد على ضرورة تطبيق هذا الدستور على ارض الواقع، ولا يبقى مجرد تنظير فقط، وفي خضم البعد الأخلاقي نجدد مالك بن نبي يشير الى الفكرة الدينية، باعتبارها الفكرة التي تبنى عليها الثقافة حسب كل مجتمع مدى بعده الديني، >> ومعنى هذا ان الدين يخلق نظاما اجتماعيا يستحيل فيه الفرد الى افراد كثيرين>> (مالك، 1986، ص 53) أي ان الفرد لا يمكنه ان يتجراً داخل الجماعة بل ينصهر فيها، هذا لأنه >>لا يوجد عالم ثقافي وضعي محض>> (نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 2002، ص 72) ، بل له ابعاد دينية.

ومن هنا كان البعد الأخلاقي عند مالك بن نبي مكونا للضمير، ومنظما وموجها لشبكة العلاقات الاجتماعية والثقافية، ولهذا نجد ان الشعوب الراقية نهضت بثقافتها انطلاقا من قيم أخلاقية تخضع في مجملها الى سلطة الضمير الأخلاقي.

اما في العالم الإسلامي كما يرى مالك بن نبي، ان هناك انفصال بين المبدأ الأخلاقي وحياة الفرد المسلم، حيث أصبح الوسط هو الذي يؤثر في خلقية الفرد، بدلا من تمسكه بالقيم الأخلاقي التي يملئها عليه الدين او الضمير.

وبالتالي لابد من النظر الى المبادئ السلوكية، وإعادة هيكلة الدستور الأخلاقي، وتقوية شبكة العلاقات الاجتماعية، وتنشيط العوالم اللازمة لقيام النهضة.

3-2- البعد الجمالي:

تحتاج الثقافة الى نزعة أخلاقية تغذيها وتوجهها، كما تحتاج أيضا الى ذوق جمالي وحس فني يبعث في الانسان حب الابداع والابتكار، فهذا الأخير مرتبط ارتباطا وثيقا بالمبدأ الأخلاقي، لان الذوق الجمالي >يحفز الهمم الى ما هو ابعد من المصلحة، وهو في الوقت نفسه يحقق شرطا من أهم شروط الفاعلية، لأنه يضيف الى الواقع الأخلاقي عند الفرد دوافع إيجابية أخرى> (نبي، تأملات، 2002، ص150)، والذي من شأنه تقويم بعض الدوافع السلبية.

ولا شك ان للجمال قيمة اجتماعية كبيرة، >فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الانسان في نفسه نزوعا الى الاحسان في العمل وتوخيا للكرام من العادات> (نبي، مشكلة الثقافة، 2000، ص 82)، ولهذا فإن بن نبي يعطي للبعد الجمالي أهمية بالغة، وكذا ربطه بالبعد الأخلاقي.

3-3- المنطق العملي:

المنطق العملي عند بن نبي، ليس هو نفسه المنطق العلمي الذي أرسى دعائمه وقواعده الأولى الفيلسوف اليوناني ارسطو من قبل، بل هو >كيفية ارتباط العمل بوسائله ومقاصده، وذلك حتى لا نستسهل او نستصعب أي مقياس> (نبي، مشكلة الثقافة، 2000، ص 85)، وهذا المنطق العملي يستمد معايير وضاوابعه من المجتمع، وما يتوفر عليه هذا المجتمع من إمكانيات ووسائل وهيكل.

ولهذا فإن المنطق العملي الغائب تقريبا في المجتمع الإسلامي حسب مالك بن نبي، أدى هذا الى غياب الفاعلية، وتعويضها بلافعالية، فالكثير من المستشرقين والمفكرين يرون ان المجتمع

الإسلامي، يعين وفقا لمبادئ وتعاليم لقرآن، ولكن الاصح ان هو انهم يتكلمون <<تبعاً لمبادئ القرآن لعدم وجود المنطق العملي في السلوك الإسلامي>> (نبي، مشكلة الثقافة، 2000، ص87).

3-4-الصناعة:

لا يُقصد هنا بالصناعة المعنى الضيق المتداول في البلاد الإسلامية، على انها << وسيلة لكسب العيش للفرد وربما بناء مجده، لكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه>>، وبالتالي وجب تكوين قيادة فنية صناعية نحتاج لها اليوم من اجل النهوض بالمجتمع الإسلامي المعاصر، تدير المجتمع نحو بر الأمان.

خاتمة:

وختاماً يمكن القول ان مالك بن نبي، أراد التأسيس لثقافة تنطلق من واقع المجتمع الإسلامي، تستمد روحها من مقومات الدين الإسلامي، محددا لها جملة عناصر، تكون بمثابة الخيط لنظم الذي ينظم هذه الثقافة، بعيدا عن استيراد الثقافة التي يرى فيها انها تختلف عن البيئة الإسلامية شكلا ومضمونا، وتتنافى وتعاليم الدين الإسلامي، ذلك ان المجتمع الإسلامي ليس حقل تجارب لثقافتنا جنية تدعي التطور، لان كل ثقافة انما تستمد اصالتها من قيمتها وعاداتها وتقاليدها داخل مجتمعتها، ومكان منشأها.

قائمة المصادر والمراجع:

- بن نبي مالك. (1986). ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية. (تر: عبد الصبور شاهين، المحرر) دمشق: دار الفكر.
- دنيس كوش. (2007). مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية. (تر: منير السعيداني، المحرر) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- مالك بن نبي. (2000). مشكلة الثقافة. (تر: عبد الصبور شاهين، المحرر) دمشق: دار الفكر.
- مالك بن نبي. (2002). تأملات. دمشق: دار الفكر.
- مالك بن نبي. (2002). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. (تر: بسام بركة، المحرر) دمشق: دار الفكر.
- نبي م. ب. (1986). شروط النهضة. ب. ت. ع. شاهين (Ed.), دمشق: دار الفكر.
- وهبة م. (2007). المعجم الفلسفي. مصر: دار قباء الحديثة.